مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــ المجلد: 12 / العـدد:02 (نوفمبر2024) ص 411– 421
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

ثقافة الذات والآخر في رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك

The culture of the self and the other in Ibn Fadlan's journey to the lands of the Turks

الدكتور: عبد الله حرمه

جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)، abde.harma@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2024/03/24	تاريخ القبول: 2024/10/15	تاريخ النشر: 2024/11/28

الملخص:

يعد أدب الرحلة وثيقة تقوم على المشاهدة والوصف والسرد لحياة الأمم والأقاليم البعيدة، ليوثّق مختلف عاداتهم وسائر نظم معيشتهم، فكان القرن الرابع الهجري منطلقا لذلك، فهو يهدف للتطلع على الآخر ومحاولة الانفتاح عليه لتحقيق التمازج والتكامل بين الثقافات والحضارات المتباينة.

ومما خلصت إليه من نتائج أن ابن فضلان كانت رحلته بهدف تعليم الآخر الدين الإسلامي، فقامت على ثنائية التزيين والتقبيح (الذات والآخر) لعديد أوصاف المشاهدات، ثم النظرة الدونية لعاداتهم السلبية المستعصية أحيانا على التقويم.

كلمات مفتاحية: الرحلة؛ الذات؛ الآخر؛ الوصف؛ الرسم.

Abstract

Travel literature is a document based on observation, description and narration of the lives of distant nations and regions, to document their various customs and other systems of living. The fourth century AH was the starting point for this, as it aims to look at the other and try to be open to it in order to achieve mixing and integration between disparate cultures and civilizations.

Among the results I concluded was that Ibn Fadlan's journey was aimed at teaching others the Islamic religion, so it was based on the duality of beautification and ugliness (the self and the other) to many scenes that he encountered and described, and then the inferiority view of their negative habits that are sometimes difficult to correct.

Keywords: journey; Self; the other; the description; The drawing.

المؤلف المرسل: د. عبد الله حرمه ، **الإيميل**: abdellahharma@gmail.com

1. مقدمة:

عرف الفرد العربي الاكتشاف منذ القديم للتعرف على ثقافة الآخر، فدوّن رحلاته التي توسعت إلى بلدان وممالك متعددة تحدث عنها الرحالة، منها رحلة ابن فضلان التي عملت على اكتشاف الآخر وأظهرت في طياتها مقارنة بين ثقافته الذاتية وما اطّلع عليه من عادات وأعراف الترك (الآخر)، فهي تمثل وثيقة أدبية وتاريخية، باعتماد المنهج الوصفي التاريخي الملائم، فهل تمثلت مقارنته بين ثقافته وثقافة الآخر؟ وما هي الميادين التي شملتها؟

2. مفهوم الرحلة لغة:

جاء في لسان العرب في مادة (رحل) ما يلي: «ورجلٌ رحولٌ وقوم رُحَّل أي يرتحلون كثيرا. والتَّرحُّل والارتحال: الانتقال وهو الرِّحلة والرُّحْلة. الرِّحلة: اسم للارتحال للمَسير. ورجل مُرْحِل أي له رواحل كثيرة. والرَّحِيل: القوي على الارتحال والسير، والأنثى رحِيلة. والمُرْتَحَل: نقيض المَحَلِّ» (ابن منظور، 1984م، الصفحات 277-279).

وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ (القرآن الكريم). فالرحلة: كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى.

الرحلة وأدب الرحلة اصطلاحا:

ويسمى أدب الرِّحلات، وهو آثار أدبية كثيرة تهتم بانطباعات المؤلف المتعددة عن أماكن متنوعة، يضمنها طبائع وسلوكات الأمم التي رآها وإن اختلفت عنه أخلاقا، وتدوين مشاهد الطبيعة وأجوائها بدقة متناهية، وربما يحكيها بشكل سلس يغلب عليه السرد المرتب، وله أن يجمع ذلك كله مرة واحدة (وهيبة و المهندس، 1984م، صفحة 17). في عديد المناطق، والبلدان التي مروا بها وشاهدوا طبائع أممها وحياتهم الاجتماعية والسياسية وطرق بنيانهم المختلفة (الفاضل، 2003م، صفحة 154).

والرحلة وثيقة تاريخية وأدبية تقوم على السرد والمشاهدة والمعاينة والوصف الدقيق لأحوال المجتمع الذي ارتحل إليه صاحب الرحلة، وأحوال أهله وعلمائه، وتكشف عن طبيعة الوعي الإنساني بالآخر الذي تسعى في تشكيله الرحلة، فضلا عن كونها فهما لذات الآخر ومعرفته، لأن معرفة هذا الآخر هي جزء من معرفة الذات، التي لا تكتمل إلا بفهم الآخر ومعرفته.

وللعرب منذ جاهليتهم الأولى أسفارهم التجارية إلى موانئ الهند والساحل الإفريقي، ومن أخبار العرب في هذا المضمار، رحلة الشتاء والصيف (الفاضل، 2003م، صفحة 155)، ورحلة ابن جبير وابن بطوطه... (أحمد

ع.، 2023م، صفحة 41). ثم إن القيمة الثقافية للرحلة تضم المعارف الجغرافية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية بوصف أدبي فنّي راقٍ (أحمد ع.، 2023م، صفحة 54، 55).

إذن عرف العرب المسالك والبلدان والتقويم من المراحل الأولى للتأليف، وخطوا مؤلفاتهم في رحلة عامة تأخذ أحيانا طابعا أدبيا فنيا لما تحمله من ألوان الوصف والسرد المشوق للوقائع التي مرت بهم في حلهم وترحالهم، وحينا طابعا علميا لما تشتمل عليه هذه الرحلات من الفوائد الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية، وما إلى ذلك من الآثار العمرانية والحضارية، فاختلفت في القالب والدافع.

3. نبذة تعريفية لصاحب الرحلة:

هو أحمد بن فضلان بن عباس بن رشيد بن حماد، (الزركلي، 2002م، صفحة 195)، وقد تضاربت المصادر في تاريخ وفاته بسبب ضياع آخر رسالته، فرأي يقول أنه «توفي في حدود 309هـ تسع وثلاثمئة» (البغدادي ، 1951م، صفحة 57)، ورأي آخر يقول أنه توفي بعد 310هـ (الكملائي، 2018م، صفحة 129)،عمد الخليفة المقتدر إلى إرساله إلى أمير البلغار فقد طلب هذا الأخير من يفقهه في الدين ويوضح له الدين الإسلامي بعدما أسلم (أحمد ر.، (د ت)، صفحة 45)، ويذكر الكملائي أنهم اعتنقوه في فترة زمنية غير طويلة (الكملائي، 2018م، صفحة 128).

وقد وضح جهاد التُرباني التشويه الذي تعرض له ابن فضلان من الغربيين للانتقاص منه ومن دينه مما لا يقبله عاقل (جهاد ، 2010م، صفحة 399)، حيث تصدر ابن فضلان المكانة الأولى بين الرحالة من جهة الزمن أو من الأهمية الذاتية لما نالته رسالته من الشهرة والاهتمام في الأزمنة الحاضرة (كراتشكوفسكي، 1963م، صفحة 186)

ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان اختصارا موجزا لأصل رسالة ابن فضلان الذي عثر عليه في مشهد (بروكلمان، 1983، صفحة 242)، ومنه تعد هذه الرحلة أثمن ما دوّن عن شعوب الترك والروس والصقالبة والخزر (مينورسكي، 1985م، صفحة 32).

4. دراسة تحليلية لرحلة ابن فضلان:

يمكن القول إن الوعي بالذات والآخر بدأ في الحضارة العربية الإسلامية إبّان العهود الأولى لتشكل المجتمع الإسلامي، ففي المراحل الأولى كان معيار الحكم على صورة الآخر خاضعا لانتمائه الاجتماعي والعقائدي، ثم ساهمت عوامل عدة في تشكيل صورة الآخر في الوعي الإسلامي من خلال اتصال الشرق بالغرب، وتعددت وتنوعت إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية.

إن لكتب الجغرافيا والرحلات نصيب كبير في تصوير الآخر على صفحاتها، حيث الآخر يتحدد بالدرجة الأولى « لأنه يخالف تديّنه الذي لم يألفه طبعه، فأصابه بالدهشة في بعده عن الهدي الخلقي السوي العام» (حسين، 1989م، صفحة 181).

وقد اصطدم الشرق والغرب في العصور الماضية منذ ظهور الإسلام فتشكلت قوة جديدة على الساحة العالمية، مما أدى إلى توتر في العلاقة بينهما صاغ وعي كل منهما تجاه الآخر، وكان الدين هو المعيار والمقياس والحكم، ولا يختلف المسلمون في هذا عن غيرهم حيث نجده متجسدا في مشوار الرحلة العربية قديما وحديثا، وهذا ما سنعرض له في رحلة ابن فضلان.

5. إبراز ثقافة الذات في نصوص ابن فضلان عن بلاد الترك:

لقد شكل الغير (غير المسلم) بصفة عامة في ذهنية أغلبية رحالة المسلمين شيئا مذموما لا يستأهل إلا الوصف بأردأ الألفاظ خصوصا إذا كان لدى هذا الغير عادات وتقاليد تخالف ما تعود عليه الرحالة وألفوه، وهو ما نطلق عليه إبراز ثقافة الذات وتفضيلها على غيرها من الثقافات، كيف لا وابن فضلان ينطلق من موقعه الحضاري الذي تزامن مع فترة القرن الرابع الهجري، حيث احتلت فيه الدولة العباسية القيادة العالمية مثلها التي تحتلها أمريكا اليوم.

من خلال هذه النظرة الدنيوية للآخر أحاول في هذا العنصر الوقوف على أهم النصوص التي أبرزت ثقافة ابن فضلان، ولنبدأ بالصورة السلبية للآخر، صورة الآخر التركي.

انطلق ابن فضلان في تقديم صورة العجم والترك من ثقافته الإسلامية المنفتحة على الآخر، أي على ثقافته المتوارثة، والتي أشار إليها سامي الدهان فقال: إن هذا الرجل مشبع بعفة ووعي ديني وأخلاق عالية، فكان تمثل الدين الإسلامي سمة ظهرت فيه بصدق في أسلوبه وحديثه (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 174).

من هذا المنطلق أخذ ابن فضلان إعطاء صورة للآخر تارة سلبية وهي تتم على ثقافته الذاتية المتشبعة بتعاليم الإسلام، وأخرى إيجابية مستحسنة لتقاليد وأعراف هذا الآخر، ولنبدأ بالصورة السلبية للآخر التركي.

6. الصورة السلبية لأهل الترك:

نقل لنا ابن فضلان صورة إثنوغرافية خصبة عن أهل العجم عامة والترك خاصة منطلقا من ثقافته الذاتية المتشبعة بتعاليم الدين الإسلامي، ومن خلال نظرته الثاقبة ووصفه الدقيق تفرعت هذه النظرة للآخر إلى مجموعة من المحاور والمواضيع، فنقل عاداتهم في الزواج ورسمهم في النظافة ومراسيم استقبالهم للضيف، كما نقل لنا صورة

عن لغتهم وطريقة نطقهم لها، ونقل لنا مواقفا عن معتقداتهم الدينية التي تعددت إلى عبادة أكثر من ربّ، كله في قالب فنّي شيق.

1.6 **وصف رسمهم في الزواج:**

وصف لنا ابن فضلان صورة عن عاداتهم في الزواج، وهو رسم عابه على أهل الترك، لأنه يخالف تعاليم الدين الإسلامي، فمن سننهم إذا أراد الشاب التزوج من فتاة هو قيام بعضهم في خطبة حرمه: سواء كانت الأخت أو البنت وكل من له سلطة عليه بعدد من لباس خوارزم فإن قبل منحها إياه، وقد يكون مهرها ما اتفقا عليه من إبل أو بقر أو غنم أو غيرها من الدواب، ولا يمكنه أخذها من بيت والديها حتى يكمل صداقها المتعين بينهما، فإن حقق ذلك دخل عليه بيته بلا حياء ليأخذ امرأته أمام الأسرة كلها كبيرهم وصغيرهم وبحضورهم (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 63).

فأمر الزواج مشروط عندهم بإعطاء الصداق وإتمام مقداره، وهم بهذا يشبهون المسلمين في شرائع دينهم، إلا أن المخالف هو ارتباط الزواج بإتمام مقدار المهر له، إن اكتمل ذلك حق للزوج بإتمام مقدار الصداق أن يطأ زوجته في حضرة أبيها وأمها وإخوتها دون أدنى حياء وحشمة.

أما الثوب الخوارزمي فهو المصنوع في خوارزم، وكانت مشهورة بجودة ثيابها.

ثم يضيف أمرا آخر يعيبه ابن فضلان لمخالفته ثقافته الإسلامية وهو أمر منهي عنه في دين الإسلام يتعلق بزواج الابن بزوجه أبيه بعد وفاته، وإذا فاضت روح الرجل وترك زوجة وأبناء يتزوج الولد الكبير بها شرط ألا تكون أمه (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 63).

ثم نشير إلى أن أقوام الترك كما وصفهم ابن فضلان قوم ينتشر بينهم الشذوذ ومظاهر الإباحية مشيرا إلى ذلك أكثر من مرة حيث يقول: لا تتستر المرأة من الرجل أو الرجال أو الناس، ولا تغطي أي جزء من جسمها عن الآخرين (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 62).

وينتقل ليستعظم فعلاً كان متفشياً بين أهل الترك وهو اللواط، «وأمر اللواط عظيم عندهم جدا» (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 63)؛ أي مستفحل فاستأثروا الغلمان في قضاء نشوتهم ونزوتهم الجنسية على الزواج من النساء، أما عن موقفهم من الزنا فمغاير تماما برغم الإباحية والشذوذ التي كان يتصف بها هؤلاء القوم، ففعل الزنا كان أمراً عظيماً يستهجنه العامة والخاصة، ويحكم على مرتكبه عقوبة قاسية ولا يشفع له فيها أحد حيث يقول: ولا يمارسون الزنا فمن قام به قطعوه نصفين عقابا وتأديبا له وذلك بربطه بين غصني شجرتين فيطلقون غصني الشجرتين لينشق الزاني إلى نصفين.

ويفعلون ذلك بالمرأة أيضا، ومهما كانت مكانة الزاني (ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، 1959م، صفحة 134).

2.6 **وصف رسمهم في النظافة:**

تعكس ثقافتهم في النظافة تدني حضارتهم إلى الحضيض، فينقل لنا ابن فضلان صورة عن حال أبدانهم وألبستهم التي توحي بأن بينهم وبين الماء بعداً كبيراً فيقول: أما استنجاء الفرد من نجاسة المخرجين فلا عمل لهم به حتى الجنب لا يتطهر من جنابته ولا من غيرها، كما لا يقربون الماء في الشتاء أبدا (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 62).

إلا أن الغريب عدم اكتفائهم بإلصاق القذارة، وسوء المنظر الذي اتصفوا به لأنفسهم، بل تعدى ذلك تحريمهم استعمال الماء لكل زائر لهم سواء كان مسلما أو غيره، فلا يستطيع أي تاجر التطهر من الجنابة إلا في غيابهم عنهم ويكون هذا ليلا (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 63).

ثم يعرض ابن فضلان براعته في الملاحظة ودقته في الوصف، حيث يضيف أنه استقبل ذات يوم عند أحد قاده الترك فأهدى له لباساً ثميناً كشكر واعتراف لحسن ضيافته له، وإذا بالقائد شغوف في لباس هذا الثوب، فأبصر ابن فضلان ما لم يحسن خاطره، حيث قال: ينزع الرجل ديباجته ثم يلبس الخلع فأبصرت القرطق الممزق من شدة الوسخ عليه تماشيا مع عرفهم السائر بعدم التخلي عن ثوبه الملاصق بدنه إلى حين تآكله من الوسخ (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 69).

يقصد بالديباجة الثوب الحسن الذي كان يرتديه، أما القرطق معرّب من (كرته) وهو قميص أو معطف صغير يصل إلى منتصف الجسم.

3.6 **صورة عن معتقداتهم:**

يعد الدين أحد المعايير التي حكمت على صورة الآخر خاصة عند الرحالة القدامى؛ فنجد ابن فضلان ينقل لنا صورة عن معتقداتهم، واصفا إياهم بأنهم كالبهائم الضالة التي لا عقل لها ولا دين؛ إذ يقول: كأنهم بهائم شاردة بسبب بعدهم عن الإسلام وعدم رجوعهم للعقل كي يوصلهم للعبادة الصحيحة رغم اتصاف زعمائهم بالربوبية ونسبها إليهم (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 62).

شبههم بالحمير لعدم إعمال عقلهم في التدبر والتفكر، يدرك أن لهذا الكون خالقاً هو أولى بالعبادة فهي نظرة دونية للآخر مبنيه على مفاضله الدين الاسلامي على غيره، باعتبار الدين عند الله الاسلام.

يصف كراتشكوفسكي الصقالبة في الشمال بأن الصفات الغالبة عندهم هي الغباوة والجفاء والبهائمية؛ حيث تزداد كلما توغلت ناحية الشمال (كراتشكوفسكي، 1963م، صفحة 182)، «والمعظم في أجناس

الترك هم التبت» (المسعودي، 1983م، صفحة 124). فالتبت مدينة كبيرة تنسب إليها أرضها لأنها من موطن الأتراك التبتية المشهورة بالصناعة والتجارة (الإدريسي، 2002م، صفحة 512، 513)، وغيرها من الأمم المتوحشة كالترك والكرد... (المسعودي، 1983م، صفحة 118)، أما إذا انكسرت السفن في بحرهم بسبب الرياح فإنهم يستولون عليها (الأصطخري، 1927، صفحة 219).

ثم يضيف أن عباده الأصنام كانت منتشرة في بعض النواحي الأخرى من بلاد الأتراك، حيث يقول: كانوا ينحتون من الخشب إحليلا يعلقونه عليهم أثناء السفر أو أمام الأعداء فيقبلونه ويسجدون له دفعا للأذى الذي قد يلحقهم (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 73).

يستفسر ابن فضلان عن هذا العمل وما حاجتهم لمثل هذا، فيخبره أحدهم قائلاً: كان خروجي منه فلا أعلم ربا خالقا آخر، وبعظهم يرى من الأرباب اثنا عشر حسب هواه (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 73)، فيأسف ابن فضلان لهذا الوضع، ويرد على ذلك: تنزه الله عن ظلم المعتدين رفعة وعظمة (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 74).

4.6 **موقفه من لغتهم:**

يمكن القول أن اللغة عموما تعد عنصرا بارزا في تقييم حضارة ما على أنها راقيه أو متدنية، من خلال سعة استيعابها للعلوم ومجال انتشارها، وهو حال اللغة العربية في القرن الرابع الهجري، فقد كانت لغة عالمية تشمل الفنون والعلوم المختلفة بالإضافة لكونها لغة الدين الإسلامي الذي أصبح يشكل هوية الشعوب العربية أو العجمية (ماجدة، 2010م، صفحة 142).

من هذه المكانة التي حظيت بها اللغة العربية انطلق ابن فضلان في وصفه الاستعلاء للغة الآخر وطباعه حيث يقول: والوحشية سمة طبعهم، وكلامهم قريب من الصوت العالي لعصافير الزرزور (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 49).

نجد أن ابن فضلان ألصق صفة حيوانية بأهل خوارزم (التوحش) في الطباع، وهذا يدل على اختلاطه ومعاشرته لهم فرأى منهم خشونة في التعامل وسفك في الدماء، فلا يكاد أحدا منهم أن يخرج من محله أو داره دون تدجيج بسلاح هذا من جهة، ومن جهة أخرى استغرابه واستنكاره لمثل هذه الامور بحكم الحضارة الراقية التي ينتمي إليها ابن فضلان، والتي أكثر ما تحافظ عليه سياده الأمن والاستقرار وحفظ الدم والمال.

أما عن تشبيه كلامهم بصياح الزرازير فمنطلقه أن اللغة العربية سادت أقطار العالم، فكانت سيده اللغات مكتسبة هذه المكانة لامتلاكها بعدا تقديسياً، وبعدا جماليا في الوقت نفسه، «فالعربية عندنا أحسن الألفاظ مخارجا، وأخفها على اللسان، وأوصلها إلى الآذان، وكل هذه المحاسن تابعة للشريعة التي حملها الله تعالى تمام الشرائع» (ماجدة، 2010م، صفحة 142)، فهي لغة القرآن ولغة أهل الجنة في الجنة، رأى من هذا المنطلق أن ينعت غيرها بلغة الزرازير، بل لم يكتف بهذا النعت فنعت أهل قرية الكردلية قرب خوارزم بقوله: «كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع» (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 50).

إذاً عمد ابن فضلان إلى تشبيه كلامهم بأصوات الحيوانات "الزرازير والضفادع"، وهذا ربما دلّ على صعوبة التواصل التي حالت بينه وبين فهم هؤلاء القوم.

وفي إطار وصفهم بالوحشية وحب السفك والقتل يضيف عن أهل الباشغار أنهم شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداما على القتل، بل بلغت قذارتهم أكل الحشرات والهوام من الأرض، فهم: «يأكلون القملة يتتبع الواحد منهم درز (الدرز هو موضع الخياطة، وهو الارتفاع الذي يحصل في الثوب إذا جمع طرفاه في الخياطة) قرطقه فيقرض القمل بأسنانه. ومرة قام معهم خادم دخل الإسلام بقتل قملة بظفره عثر عليها في هندامه ثم أكلها، فلما أبصرته أخبرني بأنه فعل جميل (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 73).

من كل ما سبق نستخلص أن هذه النظرة الدونية للآخر تستند أساسا إلى مفاضلة الدين الإسلامي على غيره من الديانات، كما أن هناك معيارا آخر حكم من خلاله ابن فضلان على صورة الآخر هو المعيار العرقي والحضاري، فهؤلاء القوم يختلفون عنه في النسب والعرق، بالإضافة إلى الفروقات الحضارية التي تميزه عنهم.

أما عاداتهم في التعامل مع المريض فغريبة أشد الغرابة، حيث يقول: حال السقيم عندهم أن يعتني به الخدم والعبيد المملوكين له لا يجاوره أقرباؤه ولا يدنوا منه أهله، فيقومون بنصب خيمة جهة منزله يبقى فيها حتى الوفاة أو الشفاء، بينما الفقراء والعبيد يتم التخلص منهم في الصحراء بعيدا عن الناس (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 66).

أما رسمهم في الذبح فيختلف عن المسلمين في تذكية أضحيتهم أن المسلمين هم من يتولون ذلك، لعدم معرفتهم الذبح إلا بضرب الغنم على الرأس كي تموت (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 64).

7. الصورة الإيجابية:

أما فيما يخص الصورة الإيجابية التي نجدها عند الرحالة القدامى عامة، فقد تجلت في إطار المفاضلة بين الأقوام والحضارات وترسيخ الاعتقاد بأفضلية العرب على الجميع، وذلك في إطار التزيين لكل ما يتصل بثقافة الذات العربية الإسلامية وتقبيح لمسلك وعادات الغير، وهذا عكس ما سنجده في الرحلة الحديثة، التي نجد فيها السورة الإيجابية للآخر تصل إلى حد الهوس به، فنحن فنجد الرحالة المحدثين منبهرين بالنموذج الغربي (ماجدة، 2010م، صفحة 28).

1.7 **ثقافتهم في استقبال الضيف:**

وفي الجرجانية يصف عاداتهم في استقبال الضيف بقوله: أن عرفهم السائد حال ولوج البيت عدم الوقوف بل يدخل الضيف مباشرة ليأنس بالجلوس مدة ساعة عند موضع النار ثم يطلب خبزا فإن لم يجد ما أراد ترك الدار وذهب (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 52).

نفهم من هذا التصوير أن بلاد الجرجانية بلاد برد وثلوج، فقيمة الإنسان وقمة كرمه أن يستقبل الضيف أو السائل وبحوزته نار طيبة ليصطلي هو وضيفه، فلا استضافة بدون نار، وهو أمر ربما عجب منه ابن فضلان لأنه غير طبيعي في بلاده كون مناخ شبه الجزيرة حار معتدل، فلا تمتلك النار تلك القيمة –اللهم في الطهي– التي تمتلكها في بلاد الجرجانية ثم يضيف أن الضيف يكون في قمة السعادة إذا استضافه صديق وبحوزته نار طيبة، فيكون المستضيف في قبول الضيف بالضيافة في قمة الإحسان والبر، فينقل ذلك بقوله: لما يطلب شخص صديقه لضيافته دعاه للقدوم إلى بيته كي يكرمه بالحديث على نار هادئة أشعلها وأراد قربه وإحسانه بها للرفع من قدره (ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، 2003م، صفحة 51).

ويعود لابن فضلان كل الفضل في نقل صورة حية عن أهل الترك، التي شملت عادتهم في الأكل واستقبال الضيف ومعتقداتهم، ومظاهر النظافة وغيرها من الأمور التي تمس حياتهم اليومية في قالب فني شيق، وكأنك تشاهد تلك المواقف وهي تحدث أمامك.

8. خاتمة:

إن الرحلة بكافة صورها وأسبابها وأهدافها هي إحدى الأعمدة التي قامت على أساسها صرح الحضارة العربية الإسلامية، لأن الرحلة إلى جانب كونها وسيلة من وسائل المعرفة بغزاره مادتها الإثنوغرافية فقد كانت أيضا وسيله من وسائل اكتشاف الآخر الذي اختلفت صورته من ابن فضلان إلى غيره من الرحالة، وقد توصلت إلى نتائج منها:

- نظرة فيها نوع من الإنكار لثقافة الآخر من منطلق الشعور بالتفوق.

- نظرة اتضح لنا من خلالها مظاهر الاحترام لبعض عادات الآخر.
- نظرة ثالثة تبين لنا من خلالها مدى إعجابه ببعض الظواهر الطبيعية خاصة دون عاداتهم وتقاليدهم.
- يكمن الاختلاف في أن ابن فضلان انطلق في وصفه للآخر من منطلق تفوقه الحضاري، لكن ما ننبه عليه أن رغم الازدهار التي كانت تعيشه الحضارة الإسلامية في فتره القرن الرابع الهجري إلا أن هذا لم يمنع الرحالة المسلم عموما من التطلع على ثقافة الآخر، وربما الأخذ منها في إطار دائرة تعاليم الدين الإسلامي.
- إن دافع ابن فضلان يذهب ليعلم أهل الترك تعاليم الدين الاسلامي نظرا للتباين الحضاري بين الرّحالة.
- نجد أن هناك منهجه تشكل من نظرة الرحالة عامة في إطار التزيين والتقبيح على أساس مفاضلة الذات على الغير.
- إن نظرة ابن فضلان غلب على وصفها سمة المفاضلة.
- نظرته الدونية للآخر كانت مبنيه على أساس المعيار الديني فقط باعتبار أن الدين عند الله الإسلام، وإنما ترد أيضا إلى أسباب عرقية وحضارية، وهو ما يعاب على الرحالة عموما إذ لا مجال لتفضيل أمة على أخرى.
- في عصر ابن فضلان كان الاتصال الثقافي والاحتكاك الحضاري بين العرب والمسلمين، والمسلمين من غير العرب في الأقاليم التي فتحها مبعث أخذ وعطاء في العديد من جوانب الحياة اليومية خصوصا فيما يتعلق بالأمور الإدارية، لكن لم تسجل كتاباتهم صراعا بين الحضارة العربية الإسلامية وغيرها، حيث يعود ذلك في نظرنا إلى الغلبة السياسية والحضارية للعرب الفاتحين، لأنه لم يسمح بمثل هذا الصراع.

قائمة المصادر والمراجع:

إبراهيم بن محمد الأصطخري. (1927). *مسالك الممالك*. ليدن: مطبعة بريل.

أحمد ابن فضلان. (1959م). *رسالة ابن فضلان*. (سامي الدهان، المحرر) دمشق: مطبوهات المجمع العلمي العربي بدمشق.

أحمد ابن فضلان. (2003م). *رحلة ابن فضلان* (الإصدار د ط). (شاكر لعيبي، المحرر) أبو ظبي، عمان: دار السويدي، دار الفارس.

أحمد الفاضل. (2003م). *تاريخ وعصور الأدب العربي*. بيروت: دار الفكر اللبناني.

إسماعيل باشا البغدادي . (1951م). *هدية العارفين*. بيروت- لبنان: دار إحياء التراث العربي.

أغناطيوس كراتشكوفسكي. (1963م). *تاريخ الأدب الجغرافي العربي*. (عثمان هاشم صلاح الدين ، المترجمون) القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

التربانى جهاد . (2010م). *مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ*. مصر: دار التقوى للنشر والتوزيع.

الشريف الإدريسي. (2002م). *نزهة المشتاق في اختراق الأفاق* (المجلد مجلد 01). القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

القرآن الكريم. (بلا تاريخ). *سورة قريش*.

جمال الدين ابن منظور. (1984م). *لسان العرب* (المجلد 11). قم إيران: أدب الحوزة.

حمود ماجدة. (2010م). *صورة الآخر في التراث العربي* (الإصدار د ط). بيروت: الدار العربية للعلوم.

خير الدين الزركلي. (2002م). *الأعلام*. بيروت- لبنان: دار العلم للملايين.

رمضان أحمد أحمد. ((د ت)). *الرحلة والرحالة المسلمون*. جدة: دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

علي بن الحسين المسعودي. (1983م). *مروج الذهب ومعادن الجوهر* (المجلد ج2). (محي الدين عبد الحميد محمد، المحرر) بيروت: دار الفكر.

عمر أحمد. (2023م). *أدب الرحلات والأسفار*. تركيا.

كارل بروكلمان. (1983). *تاريخ الأدب العربي* (المجلد ج4). (يعقوب بكر السيد، و عبد التواب رمضان، المترجمون) القاهرة: دار المعارف.

م. ف مينورسكي. (يناير، 1985م). الجغرافيون والرحالة المسلمون. (حميدة عبد الرحمن، المحرر، و حميدة عبد الرحمن، المترجمون) *الجغرافيون والرحالة المسلمون*.

مجدي وهيبة، و كامل المهندس. (1984م). *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب* (الإصدار الطبعة 02). مكتبة لبنان.

محب الرحمن الكملائي. (2018م). *البدور المضية في تراجم الحنفية* (المجلد ج3). القاهرة: دار الصالح.

محمد فهيم حسين. (1989م). *أدب الرحلات* (الإصدار د ط). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.